

## رثاء زميل الدكتور سالم العطاونة

فجعت نبأ وفاتك في مشفى سوروكا- بئر السبع- حين قصدت زيارتك ، فما أن وصلت إلى باب غرفة الطوارئ لرؤيتك حتى نعى النعاة لي: رحمه الله، أعطاك عمره منذ ثلاث دقائق ، لم أصدق الخبر ، فأعدت الطلب في الدخول إلى غرفة الطوارئ لرؤيتك ، أنك لم تستوعب النبأ ! سالم راح ! راح سالم !! ويا له من وقع عليّ كأنني أقول لنفسي : نعى النعاة لي سالما فزلزلت الأرض بي وزالت من تحت قدمي رواسيها ، لم أصدق النبأ، ولم أستطع أن أهضم هذا النبأ الهائل الذي وقع عليّ كالصاعقة في يوم جديد قشيب ، أهكذا تنفض الصاعقة فتهوي بالشجرة الأكثر علواً والأشدّ ايناعا . أهكذا تمصر العوادي الزهر النضير وهو بعد في الإكمال ويذوي غصن العلم والأدب ، أهكذا يأفل النجم المتألق فيخلف الديار موحشة خالية من أنسه ولطف معشره ؟! أهكذا يرحل الأمل الباسل ولا يبقى في القلوب إلا لوعة وحرقة وأسى، ولا يبقى في العيون إلا الدمع يذرف مدراراً.

فيا عيون المحبين اذري الدمع عليه أسفا، ويا عرائس الخيال اتشحي عليه ثوب السواد واهبطي على مضجعه بطيف من خيالك يعزيه في وحشته ويؤنسه في وحدته. ويا ذويه التاكلين على المصيبة صبرا ،إيه يا روح عزيزنا ! إنّ الزمان القادر أن ينسي المرء كلّ شيء لعاجز أن ينسيني تلك الأيام الساجية التي لا تزال تتراءى أمام مرآة ذكرياتي بأروع صورة من صور الإخاء الصادق والألم الأبكت الصامت .  
لله يا قدر !

كنت عرفته مثلما عرفه الكثيرون وعاشرته ورافقته سنين طوال في الجامعة العبرية في القدس في بداية ثمانينيات القرن الماضي يوم دخل إلى غرفة الفصل لمساق الأدب العربي الحديث ،يقدمه الأستاذ شمويثل موريه اليهودي دينا والعربي ثقافة ولسانا ! وشاءت الأقدار أن اجلس إلى جانبي شاب وسيم المحيا حنطي اللون ، فسألته عن اسمه ، ومن أين أنت ؟ أجابني :سالم من بئر السبع ، فقلت من بئر السبع أم من .... فقال : من قرية حورة ، فأجبتة : تلك البلدة الواقعة ما بين مفرق شوكت والطريق المؤدية إلى مدينة عراد ، حيث تقع على رابية من روابي النقب ، يتقدمها بيتان من الصريف بلون الربيع خضرة لشيخ النقب المرحوم موسى العطاونة ، فقال : وصلت وربّ الكعبة ! ومنذ تلك اللحظة نشأت وتوطدت بيننا أخوة وصداقة حميمة، ونحن مازلنا في ريعان الشباب طلبة في الجامعة العبرية في القدس ، وتمضي السنون وإذا بي أدرس في الكلية الأكاديمية "كي" بئر السبع ثم يلتحق بي بعد ثلاث سنين لنكوّن النواة الأولى لطاغم قسم اللغة العربية في الكلية، وحين عمدت إلى رئاسة القسم ، كان - والحق يقال - نغم الصديق الوفي والرفيق والأنيس. كان إنساناً دميئاً خلوقاً ، تعلقو الابتسامه شفثيه، ذا مشورة طيبة ونخوة أصيلة وشهامة، فما كنت أطلب منه طلباً إلا ولّياه كالسهم النافذ ، قانعاً متواضعاً ، كرمياً جواداً، محاضراً فاضلاً متفانياً في عمله، يقدره عالياً طلبته وزملاؤه ورفاقه، يبذل كلّ ما يستطيع من الغالي والرخيص، يقدم فوق ما يستطيع تبرّعاً لوجه الله لا يلتمس جزاءً ولا شكوراً. اقترن شخصه بالعمل الدؤوب يوم يتم صوب الجامعة العبرية في القدس فدرّس اللغة العربية وآدابها منهياً اللقب الأول ، وأما اللقب الثاني في اللغة العربية وآدابها فقد كان التحق في جامعة بار إيلان ، ثم تراه بمضي صوب روسيا البيضاء إلى جامعة موسكو قسم الدراسات الشرقية لإهاء درجة الدكتوراة حول أدب الشاعر المناضل توفيق زيّاد ، تراه يبحث عن الجانب الوطني المكنون في خلدته حيث كان وطنيا حتى النخاع منذ نعومة أظفاره ، وحينما طلبت منك أن تقترح مساقين جديدين للتدريس ، كان جوابك : النزعة الإنسانية في الأدب الفلسطيني لأنه قريب إلى ذاتك ، تريد إيصال هذه النزعة إلى طلابك فتزرع فيهم روح الإنسانية التي تعبق من النصوص الأدبية الفلسطينية ، وأما المساق الثاني فكان : الرثاء في الأدب العربي ، فكأنني بك تريد أن ترثي نفسك بنفسك ، ترى ، هل كان يشعر أن الأجل قريب ! أم ماذا ؟ هل يشعر الإنسان بقرب الساعة والأجل المكتوب ؟ كيف أفسّر ما اقترحتته عليّ ؟ هل تعبر عن خلائج ومكنون قلبك، لكنني أراك تسير في الدرب واتقأ ، وتمشي علماً يحدوه الأمل بتغيير الواقع الكئيب نحو غدٍ مشرق لأهلنا في الجنوب الحبيب . فما تعبت ولا كلّلت أبداً ولكن المشوار كلّ. لقد وافتك المنية وأنت في عنفوان حياتك وأوج عطائك ، ليغيب عنا الجسد وتبقى الروح خفاقة ترفرف في ربوع الجنوب والشمال خالدة أبية .

رأيناك تتحمل الآلام والأوجاع بنفسٍ راضيةٍ ، ولسانٍ شاكرٍ حامدٍ لله سبحانه ، ولم نعلم أنك قطرت من عينك دمعة ، أو بدر منك قولاً ، أو صدر عنك فعلٌ يدل على جزعك أو تسخطك أو عدم رضاك بما قدّره الله عليك مما كتبه الله لك ، إيماناً منك بأنّه ما من مسلمٍ يُصيبه أذىً من مرضٍ فما سواه إلا حطّ الله به سيئاته كما تحطُّ الشجرة ورقها . فالله الحمد والمِنَّة . لم تبح لأحد بما تحسّ وتشعر ! لم تشاطرنا الألم والمرض الذي تعانیه ، آخر حديث لنا كنتُ سألتك : هل عندك سكري أو كولستروول يا سالم؟ فأجبت : لا ! بل أظهرت لي أن صحتك عال العال ، هكذا أنت ، دائماً تُشعر الآخرين أنك عال العال وفي أحسن حال!

تجاوز الله عنك يا من كنت قريباً من الناس ، حبيباً أنيساً للجلّاس ، تحسن الاستماع كما تحسن الكلام ، لطيفاً مع الكلّ أساتذة وطلاباً وليس بالأمر الغريب أن تكون رئيس لجنة المحاضرين ، تسعى دون كللٍ لتحقيق حقوق زملائك من الغبن الواقع عليهم من البيروقراطية المنبوذة ، أحبك الجميع واحترموك ؛ فلماً سمعوا نبأ وفاتك بكنك الأعين ، ودعت لك الألسن ، وترحم عليك من عرفك ومن لم يعرفك ، فكنت لا تفرق بين طالب وطالبة كلهم عندك بشر سواء من أبناء آدم وحواء ، ولسان حالهم يقول :

### ليهنك ما رأينا من شهودٍ بأرض الله كلهم ثناء

ولما لم تمض سوى أيامٍ قلائل على فقدك يا عزيزنا ؛ فإن يدي لا تزال غير قادرةٍ على الإمساك بالقلم لأكتب لك رثاءً ؛ لأنّ البلاء بفقده كان عظيماً ، ورحيلك عنا كان مؤلماً ، وقد رحلت معك الكلمات الجديرة برثائك ، ولم يبق منها إلا القليل الذي يُذكرني بقول الشاعر

يا ربّ خُذ منا دعاءً مخلصاً يا من يُجيب فلا يخيب دعاءُ  
ندعوك وسّع قبره وأغسله بالبرد الذي غُسلت به الشهداءُ  
وارحمه يا رحمن واجعل قبره روضاً فإنّ العفو منك عزاءُ

إنّ روحك الطاهرة ترفرف أبداً فوق رؤوسنا ، فاسترح في مرقدك ، واعلم أننا لن ننساك ، فذكراك على الدهر حيّة في القلوب ، ومن يزرع بذور الخلود والحياة فإنه لا يفنى أبداً .

رحمك الله تعالى يا من توافدت المئات ، وتتابعت الاتصالات من كل مكان لعزاء أهلك وعشيرك ومواسمهم في مصابهم فيك ، ونحن وإياهم نستقبل ذلك كله بقلوبٍ حزينةٍ ، ونفوسٍ منكسرةٍ ، وأعينٍ دامعةٍ ، في أيامٍ عصيبةٍ لم يهّن علينا فيها هول المصاب وألمه ؛ إلاّ إيماننا بأن ما أصابنا ليس إلاّ ما قدّر الله علينا جميعاً ، وأنّ الله ما أعطى ، وله ما أخذ ، وأنّ كلّ شيءٍ عنده بمقدار ، وإنّا لله وإنا إليه راجعون .

أحسن الله إليك يا من كنت تُحسن إلى الناس أجمعين ، ولا تتورع عن مدّ يد العون والمُساعدة لهم ولو بالقليل القليل ، وكنت حاضراً جاهزاً ، ما أن أطلب منك طلباً في القسم إلا وأتممته وأدبته على أكمل وجه ، وآخر طلب كان أن هناك استشارة للطلبة وأنني سوف أكون خارج البلد وأجبت : لا عليك! سأكون حاضراً إن شاء الله ، وكيف لي أن أصدق الآن ما كنت اقترحت عليّ أن تدرّس مساقاً في قسم اللغة العربية " الرثاء في الأدب العربي " فكأنك كنت تعدّ رثاءً لنفسك بنفسك !! وكنت تعطف على طلابك فتقدم لهم ما استطعت من الخدمات البسيطة فتدخل على أنفسهم البهجة والسرور ، كنت أبا حنوناً للطلبة أينما حللت وشغلت وعملت ، أحبوك وأرادوك ، لقد جاورتك طويلاً واطلعت على ما في قرارة نفسك وأعماق قلبك من حبّ الخير لأمتك ولأهلك وبلادك ، وعرفت فيك تلك الأخلاق الرضية والشمائل المرضية ، فكنت ألقى فيك حماسة الشباب الغيور ، وحنكة الشيخ الوقور .

لن ننساك يا سالم ، وستبقى ذكراك خالدةً في نفوسنا عبقة بأريج المحبة والوفاء والإخلاص . ومهما أفضنا فيك من ذكر المآثر والمناقب الحميدة فلن نوفيك حقك ، وسنبقى مدينين لك ما حيينا ، فكم قضى أناس وأقوامٌ وما ماتت مكارمهم وشمائلهم وأعمالهم .

كتب الله أجرك وضاعفه وأجزله يا من كنت تُحسن الظن بالله تعالى في كل وقتٍ وحين ، فنجدك صابراً على ما أنت فيه ، مُحسباً للأجر من عند الله تعالى هنيئاً لك الخاتمة الحسنة ، يا من توفاك الله في يومٍ وكم هي قاسيةٌ لحظة الفراق ، ولكن عزاءنا في فقدك أن الله

يقول في كتابه: "كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ" و"لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ" . ونحن والله الحمد نؤمن بقضاء الله وقدره ، غير أن معاني الروابط الإنسانية التي جمعتنا تجعلنا لا ننسى طيفك ، وتؤكد علينا دوام الاستغفار لك ، والترحم عليك ، والدعاء الصادق لك أن يُسكنك الله فسيح جناته ، إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير .

وختاماً ؛ لا يسعني إلا أن أقول : إن العين لتدمع ، وإن القلب ليحزن ، وإنا لفراقك يا سالم لمخزونون ، ولا نقول إلا ما يُرضي ربنا ، فجزاك الله عنا خير الجزاء ، وغفر الله لك ، وأن يرحمك بواسع رحمته .

الدكتور فخري بصول

رئيس قسم اللغة العربية

كلية " كي " الأكاديمية بئر السبع